طرائف من العصر المملوكي :

صفي الدين الحـــلي

في بلاط بني أرتق

الاســـتاذ محمود رزق سليم

قد نشعر في هذا المقال أننا نبعد عن ديار مصر والشام وهما محور الحديث في العصر المملوكي ، وأننا نيمم شطر ديار أخرى هي ديار بني أرتق بماردين وديار بكر . ولكنا مع هـذا لانزال في صميم العصر . فإن الشاعر صفي الدين الحلي من أجل شعرائه، وكان هو وجمال الدين بن نباتة فرسي ميدان فيه ، لايشاقهما شاعر آخر من رجال حلبتهما . فإذا تحدثنا عن صفي الدين وعلاقته ببني أرتق فإنما نتحدث عن خاصة بارزة من خواص أحد شعراء المصر ، وعن وشيجة أثيرة من وشائجه كان لها أثر كبير في أدبه

وحقاً ولد صفي الدين بالحلة بالعراق عام ٦٧٧ هـ ويبدو أنها « حلة بابل » التي عناها بقوله بعد انزاحه عنها وعن قومه فيها إلى ملوك الدولة الأرتقية :

ألا أبلغ — هديت — سراة قومي بحلة بابل عنـــد الورود
ألا لا تشـغلوا قلباً لبعدي فإني كل يوم في مـــزيد
لأني قـد حللت حمى ملوك ربوع عبيدهم كهف الطريد

ثم انزح إلى الملكة الأرتقية وطوف في آفاق الديار الحلبية والشامية والحجازية ، ولكنه عرج آنا على مصر وأقام بها ردحا من الزمن ، اتصل في خلاله بسلطانها العظيم الناصر محمد بن قلاوون وكاتب سره النابه علاء الدين بن الأثير ، ومدحهما ، ووصف مناظر الطبيعة المصرية وعيد فتح الخليج . وحُجم ديوانه بإشارة من علاء الدين . وصفي الدين تأثر — بلاريب — بالثقافة المصرية ، وتأثر بالمدرسة الأدبية المصرية التي قدست مناهج القاضي الفاضل في الكتابة والشعر ، وقدست من بعده مناهج ابن نباتة فيهما ، وعنيت أكثر ما عنيت بالتورية والتضمين . غير أن صفي الدين مع هذا كان نسيج وحده وبخاصة في شعره ، وافتن في هذا الشعر افتنانا ليس الآن مجال الحديث عنه ، سوى أننا نشير إلى أنه سلك مسالك البديع فيه ، وبلغ في هذا السلوك حتى لنشعر أن ألفاظ اللغة أصبحت كالعبد رهن يديه يصرفها كيف شاء وأنى شاء . وحتى استطاع أن يكون من مبتكري فن شعري جديد هو فن البديعيات ، والبديعيات في الشعر تعادل المقامات في النثر ، بلغ بها الفن البديعي أوجه شعرا ، كما بلغ بالمقامات أوجه نثرا . وللبديعيات حديث طويل قد نعود إليه في مقال جديد . ويعنينا الآن أن نتحدث عن صلة صفي الدين ببني أرتق وأثر هذه الصلة في أدبه .

فمن هم بنو أرتق ؟ هم ملوك ماردين وديار بكر منذ أواخر القرن الخامس الهجري . وهم بقايا من الدول التي خلفتها الدولة السلجوقية الناشئة في أواخر القرن الرابع الهجري وامتد ملكها من أواسط آسيا إلى غربها ، واستولت على بغداد والعراق في نحو منتصف القرن الخامس الهجري . ثم تشققت فيما بعد وانبثق منها دويلات عدة ، كان في جملتها الدولة الأرتقية . وينتسب ملوك هذه الدويلة إلى جدهم أرتق الذي كان أحـد قواد السلاجقة . فملك بيت المقدس زمنيا . ثم ملكها من بعده ابناه ؛ فدهمتهما جيوش الدولة الفاطمية عام ٤٨٩ هـ وانتزعت منهما بيت المقدس ، فسارا إلى الجزيرة الفراتية فملكا بها ديار بكر وقلعة ماردين واستقرا بها عام ٤٩١ هـ . وتتابعت أبناؤهما من بعدهما حتى ملك منهم المنصور وابنه الصالح اللذان عاشا في أوائل القرن الثامن الهجري ، وهما اللذان اتصل بهما صفي الدين اتصالا وثيقاً ، وعاش في حاشيتهما زمناً طويلا .

وكان صفي الدين من قبل هـذا يعيش بين قومه في الحلة . ويبدو أن العشائر العربية فيها كانت لا تزال تعلق بها أشياء من الروح القبلية والعصبية الجاهلية . وكان قوم صفي الدين فريقين : فريق أبيه بنو سنبس من طي ، وفريق أمه بنو محاسن . وكان بنو محاسن هؤلاء ذوي رياسة وثراء ومنهم (صفي الدين بن محاسن) وأخوه (جلال الدين بن محاسن) . نشأ الشاعر بين هؤلاء وهؤلاء فأحس بما لقومه من عراقة في الأصل ووفاهة في الحسب فحميت نفسه ووثبها الشباب فنشط شعره في باب الحماسة والفخر وربأ عن التكسب بالشعر . ثم وقعت الوقيعة بين أخواله ، وآل أبي الفضل ، فغدروا خاله « صفي الدين » وقتلوه بمسجده ، فثارت

ثائرة قومه وفى مقدمتهم شاعرهم صفى الدين الذى أهاب بخاله « جلال الدين » أن ينتقم . وما زالوا حتى أوقعوا بأعدائهم وأمنوا فيهم كيداً وإذلالا ، فكان هذا ضراماً جديداً لحماسة الشاعر وفخره .

ويبدو أن الشاعر لم تهدأ ثائرته ، ولم تثب أناته ، ولم يقنع بهذا الانتقام ، فظل يؤلب قومه على أعدائهم ويضرى بين الفريقين نار العداوة والبغضاء حتى أصبح شجى فى حلوق الأعداء وأصبحوا يتلمسون منه مقتلا . فملكه الخوف ، فآثر الفرار .

فر صفى الدين إلى بنى أرتق يتطلب فى كنفهم ملجأ يأوى إليه ، ودرعاً يستجن بها فأجاروه وأكرموا مستقبله ، واستمعوا لحديثه ، وأصغوا لشكاته . ورفعوا مكانته ووهبوا له الكثير من النعم ؛ مما ألهج لسانه بشكرهم ، وأبهج بيانه بذكرهم ، ونظم فى مديحهم أجود القصيد وأخلده استجابة لداعى الوفاء والولاء

قال يمدح المنصور وإجارته له .

وأجارنى إذ حاولت دمى العدا ... ورأت شفاء صدورها من ورده
من كل مذّاق تبسم ثغره ... وتوقدت فى الصدر جذوة حقده
ولذاك لم يرنى بمنظر شاعر ... تبغى قصائده جوائز قصده
بل بامرئ أسدى إليه سماحه ... نعما فكان المدح غاية جهده

هذه الأبيات من قصيدة له فى مدح الملك الصالح بن المنصور تغزل فى مطلعها فقال :

دبت عقارب صدغه فى خده ... وسعى على الأرداف أرقم جعده
وبدا محيـــاه ففوق لحظه ... نبلا يذود بشوكه عن ورده

ومنها يمدحه :

الصالح الملك الذى صلحت به ... رتب الملاء ولاح طالع سعده
ملك حوى رتب الفخار بسعيه ... والملك إرثا عن أبيه وجده
متسهل فى دست رتبة ملكه ... متعصب من فوق صهوة جرده
فإذا بدا ملأ العيون مهابة ... وإذا سخا ملأ الأكف برفده
كالغيث يولى الناس جودا بعدما ... بهر العقول ببرقه وبرعده

وهكذا يرى القارئ كيف انساق صفى الدين إلى المديح وإلى التكسب بالشعر وهو الذى يقول : « وكنت عاهدت نفسى ألا أمدح كريماً وإن جل ، ولا أهجو لئيما وإن ذل » .

ولعل أول مدائحه للملك المنصور قافيته التى يقول فيها :

لافيتنا ماق الكريم لضيفه ... وضممتنا ضم الكمى لسيفه
وجعلت ربعك المؤمل كعبة ... هى رحلة لشتائه ولصيفه
يا من إذا اشتبه الصواب أماره ... ورأيا يخلص نقده من زيفه
وإذا أتى أرض العدو فوجئها ... من وفده ونسورها من ضيفه الخ

انضم صفى الدين إلى حاشية الملك المنصور وبنيه ، وأصبح من سمارهم وجلسائهم ثم أصبح شاعرهم الأثير ، يفيضون عليه بصنوف من النعم ، حتى حسده على مكانته أهل ديار بكر . وفى ذلك يقول مخاطباً المنصور :

حسدت أهيل ديار بكر منطق ... فيها كما حسد الهزار اللقلق
أعيت أكابرهم أصاغر لفظها ... ولربما أعيا الرخاخ البيـدق
جاءوك باللفظ المعاد لأننى ... غربت فى طلب الغريب وشرقوا
لهم بذاك جبـــلة جبلية ... ولنا عراق والفصاحة معرق
ما كنت أرضى بالقريض فضيلة ... لكن رأيت الفضل عندك ينفق
قالوا خلقت موفقاً لمـــديحه ... فأجبتهم أن السعيد موفق

هكذا كانت منزلة صفى الدين عند بنى أرتق . وكلما زادوه برا زادهم ذكرا ؛ وكلما جادوه عطاء جادهم بقاء ، وكلما آثروه قربا آثرهم حبا ، وكان لذلك أثره الكبير فى إنتاجه الأدبى ؛ إذ نظم عدة من القصائد فى مدح المنصور سميت « المنصوريات » وهى من أجود آثاره الأدبية : ونظم تسعاً وعشرين قصيدة مرتبة على حروف الهجاء سميت « الأرتقيات » . وكأنما أراد بهذه الأرتقيات أن يطلع مليكه على ضرب من فن النظم الشعرى جديد ، وعلى منزع من منازع الشعر لم يحوم حوله شاعر من قبل ليدله بذلك على ثبات قدمه فى صناعته ، وعلو كعبه فى حرفته ، وعلى امتلاكه ناصية الافتنان إلى حد الافتتان .

والأرتقيات بعدد حروف الهجاء فلكل حرف قصيدة . فواحدة همزية وواحدة بائية وهلم جرا ... والتزم أن يبدأ كل بيت فى القصيدة بحرف رويها ، وأن تكون عدة أبياتها تسعة وعشرين . وقد يكون هذا الالتزام كله من عبث الصناعة ومن عبث الفراغ . ولكن إذا علمنا أن الشاعر قل أن سقط فى بيت منها ، بلغنا به حد العجب وشهدنا بمجادته وإجادته بالرغم من كل هذه القيود التى تعلق بها .

والأرتقيات — وإن كانت مسوقة للمدح — بدت مسرحاً لفنون غير المدح عدة ، كالغزل والخمريات ، والفخر والشكوى . ومن رقيق أبياتها ما صدر به أرتقيته الكافية حيث قال :

كفى القتال وذكى قيد أسراك ... يكفيك ما فعلت بالناس عيناك
كانت لحاظك مما قد فتكت بنا ... فمن ترى فى دم العشاق أفتاك

كفاك ما أنت بالمشتاق فاعلة ... لو أنصف الدهر في المشتاق مزاك
كملت أوصاف حسن غير ناقصة ... لو أن حسنك مقرون بحسناك
كيف انثنيت إلى الأعداء كاشفة ... غوامض السر لما استنطقوا فاك
كتمت سرك حتى قال فيك فمي ... شعراً ولم يدر أن القلب يهواك .الخ

لم يعش صفي الدين في الدولة الأرتقية عيش الشاعر المادح المتكسب ، بل تهذبت منزلته ، وتوطدت مكانته حتى بلغ مبلغ المشير ، وكأنما أصبحت له ضلع في سياسة الدولة وتوجيه ملوكها. تشعرنا بهذا قصائده ، فقد رفع إلى المنصور عام ٧٠٢ هـ قصيدة بارعة ، وكان المنصور قد أرسل جنوده ليحاصروا أعداءه في « قلعة إربل » ولم يرافقهم في المسير إليها . فحرضه صفي الدين في قصيدته تلك على اللحاق بهم ليشد بوجوده أزرهم ويشحذ همتهم، ويكون خوفاً لأعدائه ، ومضطربا لصفوفهم . ومزج في هذه القصيدة المدح بالنصح ، والتحريض الجريء بالتأدب . واستخلص من الحوادث ما توحي به من حكم وأمثال ، مع دقة تمثيل وكثرة تشبيه ، وتنقل بالفكرة بين حججها وبراهينها ، إغراء بالأخذ بها ، ومنها يقول :

أبد سنا وجهك من حجابه ... فالسيف لا يقطع في قرابه
والليث لا يرهب من زئيره ... إذا اغتدى محتجباً بغابه
والنجم لا يهدى السبيل سارياً ... إلا إذا أسفر عن حجابه
والشهد لولا أن يذاق طعمه ... لما غدا مميزاً عن صابه
إذا بدا نورك لا يصده ... تزاحم الموكب في ارتكابه

ويقول :

قم — غير مأمور — ولكن مثلما ... هز الحسام ساعة اجتذابه
فالعمى لا تعلم إرزام الحيا ... حتى يكون الرعد في سحابه
كم مدرك في يومه بعزمه ... ما لم يكن بالأمس في حسابه

ومنها يغريه بأعدائه ويرسم له طريق معاملتهم :

لا تبذل الحلم لغير شاكر ... فإنه يفضي إلى إعجابه

ويقول :

لا تقبل العذر فإن ربه ... قد أضمر التصحيف في كتابه
فتوبة المقلع إثر ذنبه ... وتوبة الغادر مع عقابه
لو أنهم خافوا كفاء ذنبهم ... لم يقدموا يوماً على ارتكابه

ويقول في خاتمتها معتذراً عن التحريض ، ومتسللاً إلى الفخر بنفسه على عادته :

لم يك تحريضي لكم إساءة ... ولم أحل في القول عن آدابه
ولا يعيب السيف وهو صارم ... هز يد الجاذب في انتدابه
ذكرك مشهور ونظمي سائر ... كلاهما أمعن في اغترابه
ذكر جميل غير أن نظمه ... يزيده حسناً مع اصطحابه
كالدر لا يُظهر حسنَ عقده ... إلا جواز السلك في أثنابه

ولما مات المنصور وولي الملك من بعده ابنه العادل فالصالح ، حسنت صلة صفي الدين بالصالح بعد لأي ، ومدحه بجملة من الروائع سميت « الصالحيات » . وتشعرنا هي الأخرى بسمو مكانته لدى الصالح ، بل تشعرنا أنه كان عنده أقرب وآثر مما كان لدى المنصور حتى سماه صفي الدين بولي نعمته ، وتشعرنا أنه كان أكثر دالة عليه ، حتى كان في خطابه له أجرأ مما كان في خطابه للمنصور ويشير إلى المنصور في مدحة رفعها إلى الملك الصالح فقال مبيناً سبب مدحه بعد أن كان قد طوى بساط المدح بعد المنصور :

ولقد عهدت إلى عرائس فكرتي ... ألا تزف إلى منعم بعده
لكنك الفرع الذي هو أصله ... شرفاً ومجدك بضعة من مجده
ونجيبه في سره ووصيه ... في أمره وصفيه من بعده

ويقول منها :

لله كم قلدتني من منة ... والقطر أعظم أن يحاط بعده

ويقول :

فاستجل درأ أنت لجة بحره ... والبس ثناء أنت ناسج برده
يزداد حسناً كلما كررته ... كالتبر يظهر حسنه في نقده

وقد عاود صفي الدين النصح للصالح كما كان ينصح لأبيه من قبله ، ويحرضه على أعدائه ويلحب له الطريق إلى معاملتهم ويجنبه الحلم والعفو ، فيقول من قصيدة :

فيا ملكا قد أطمع الناس حلمه ... لكثرة ما تعفو فيعفو ويصفح
أعد — غير مأمور — على الضد كيده ... وأذك له النار التي بات يقدح
فقد أيقن الأعداء أنك راحم ... فباهوا بأفعال الخنا وتبجحوا

ويقول منها :

تهن بعيد النحر وانحر به العدى ... فجودك عيد للورى ليس يبرح الخ

عاش صفي الدين ما عاش واتصل بغير بني ارتق من ملوك وأمراء ورؤساء ، وافتن في الشعر ما شاء له الافتنان حتى مات عام ٧٥٠ هـ بعد أن ترك أدباً خالداً وتراثاً ماجداً .

محمود رزق سليم
مدرس الأدب بكلية اللغة العربية